ومثل ابن الهيثم المصري صاحب التآليف العزيزة في الرياضيات والفلك والمبشر ابن فاتك وعلي بن رضوان وتلميذه ابراهيم بن الزيات والشيخ السديد رئيس الاطباء وشمس الرياسة بن جميع الاسرائيلي ورشيد الدين ابي خليفة وامثالهم ممن ظهروا في مصر

كل هؤلاء من علماء الفلسفة والطب والرياضيات والحكمة الطبيعية وغيرها من العلوم ونسبتهم كنسبة واحد في المائة ممن ظهروا في عصرهم وبعده في الشام وبغداد ومصر وفارس والمغرب والروم اي آسيا الصغرى وغيرها من الامصار ونهضوا بالامة واعلوا ذكر المدنية الاسلامية في الشرق والغرب وانما وضع هم الاساس افراد من الامة قدروا قدر العلم فشيدوا معاهده وترجموا كتبه واكرموا اهله فتكون من مجموع اولئك وهؤلاء وتعاونهم جيلاً بعد جيل بناء تلك المدنية العظيمة التي فقدناها بعد ولم نستطع اللحاق بابناء التمدن الحديث لاعراضنا عن العلم وغفلتنا عن تحدي الامم الراقية وقبض اكفنا عن امداد معاهد العلوم وانشاء دورها مع انا قد يطلب منا الآن ونحن جماعات فلا نجيب ما كان يجيبه الافراد من اسلافنا من تلقاء انفسهم وبمحض رغبتهم بالعلم والمعارف وحبهم للارتقاء فما هذا الفرق العظيم .

وبالجملة ايها السادة انا امة ذات ماض مجيد وتاريخ جميل وقد ترك لنا اسلافنا درساً لايمحوه الزمان ونقش في كل زاوية من المشرق ومكان فلن يبلغ بنا ضعف النظر اوضعف القلوب والهمم او فساد الاخلاق واختلاط الدم الى ان نتناساه ولانقرأ صحفه الزاهية التي يدعونا كل سطر منها الى التذكر والتفكر والسعي الحثيث الى الترقي الذي ناله القوم والعلم يحتاج الى المال . فما الى الكرم الكرم الانتباه الانتباه ولا قضي علينا بالدمار ولحق بنا العار وتبرأ منا اسلافنا الطاهرون ولا يكون ذلك ان شاء الله مادام بيننا الكرام الغيورون والرجال المفكرون والسلام عليكم

اغنياؤنا

قال لنا منذ مدة احد اعيان دمشق في اضطرابات السابقة اصابتني ان ابيع عقار بن من عقاراتي افتدري من كان يزيد فيهما ؟ قلنا لاندري . قال كان يزيد فيهما اناس لايتصور العقل ان عندهم اجرة شهر واحد اناس يجلسون على الباب ولا بعدهم من كبار السوقة بل من صغار المرتزقة لما من كان يظن انهم يملكون ذينك العقارين قد

يلاوموا عليهما علس واحد لانهم لاعقد عندهم وربما كان تقدير الناس لاموالهم هو دون الحقيقة فراحل ·

واجتمعنا من المساء بمجلس خاص بالمفكرين وارباب التجارب فقص علينا احدهم ان المزرعة الفلانية التي يراد بيعها في الغوطة قد انتهى ثمنها الى عشرين الف ليرة على رجل لم يكن يظن انه يملك عشر معشارها من الثروة حتى قال انه يدفع قيمتها حوالة على المصرف دفعة واحدة ثم اجمعت آراء الحضور على ان ثروة دمشق قد زادت في العشر سنين الاخيرة زيادة محمودة بداعي الاموال الطائلة التي يدر نهافيها دارة السكة الحجازية وهي لاتقل عن مليوني ليرة وادارة الترامواي الكهربائي الذي انفق نحو مائتي الف ليرة وما عقب قرب المواصلات من ورود السائحين والحاجين الى دمشق ذاهبين منها وجائين وما نقله السكك الحديدية من غلات البلاد القاصية فقدر ما حملته سكة حوران وحدها من الغلات في العام الفائت بمائتي الف طن والطن اربعة قناطير دمشقية وثمنها يناهز المليون ليرة وما نقلته سكة حديد حماة محمصة واربعين الف طن هذا عدا مانقلته الخطوط الاخرى وحمل آل متون الدواب والجمال من الغلات والثمرات حتى عمرت بذلك قرى حوران وكانت خرابا يبابا منذ بضع سنين وغدا الحوراني اليوم يلعب بالذهب كما يلعب جاره الفلاح المصري بالجنيهات هذا في اقليم واحد من اقاليم بلاد الشام وفي فلسطين وولاية بيروت وحلب وسورية مقاطعات لاتقل في خصبها وامراعها عن حوران ولكنها لم تشتهر شهرتها واصبح اهلها بفضل المواصلات والحركة التجارية الجديدة في سعة من العيش تزيد كلما ادخلت الحكومة اليها وفرت لهم مرافق الحياة ·

قالوا وهذه النهضة الاقتصادية في دمشق خاصة لانها قاعدة هذه البلاد والنقطة الوسطى وبها ارباب الكعبة ومقر البلدية ومركز الولاية قد استمتع بخيراتها المقاولون والنجارون والحدادون والبناؤون والجصاصون والحمالون والعملة والتجار وارباب الفنادق والمطاعم والعربات فتسربت الدراهم والدنانير الى جيوب ارباب الطبقة الوسطى فمن دونها واغتنى كثيرون وارتاشوا حتى ان كثيرين من بائعي الفول المدمس لايرضون من الربح في يومهم باقل من ليرة

كل هذا قالوه وهو صحيح ولكن واجب علينا ان لانبرح نادون ان نتدبر سره الاقتصادي والاجتماعي فالسر فيه ان كثيرين من الاعيان اكتفوا بما حازوه من الثروة ارثاً عن آبائهم او بفضل سعيهم ولا نقول كيف حازوها والطرق التي سلكوها فمنهم من كانت

ثروته ثمرة الكدح المشروع من تجارة وزراعة وهم قلائل يعدون على الاصابع . ومنهم من اغتنوا بالاتفاق فلقد اشتروا مثلاً ارضاً اوعقاراً قضت الاحوال بارتفاع اسعاره فاصبح ما ابتيع بالف يساوي عشرة آلاف وعددهم محدود ايضاً ومنهم اثرياء كان لهم او لاجدادهم من النفوذ في الدولة الاستبدادية ما يمكن الفلاحين بأن يجيئوا كل مما كانوا طالبين اليهم ان يرفعوا عنهم مظالم الحكومة او الملتزمين اوعرب البادية وياخذوا قريتهم حلالاً زلالاً وهم يكتفون منهم بالحماية ويدفعون لهم الخمس كل سنة من مجموع ما انبتت الارض . ومنهم من تيسر لهم ان يحوزوا وقفاً عليها مدرسة او مدارس فعمروا ارضه وريعه بالغصب وغلالاته مع الزمن فاغتنوا هم واولادهم ومنهم من وصلت اليه اوطاف قبلها ذمتهم وفتحوا بطونهم لاكل الرشى واضاعوا حقوق العباد والدولة حتى جمعوا لهم مقداراً من المال اشتروا به الحوانيت وعمروا الدور واستثمروا المزارع والمساكن . ومنهم من جرأوا على احتلال الايام كان ان حوران مثلاً الفقير يضطر فيها اكثر سنيه ان يقترض القروش بترسيمين وكانت للمرابين والصيارف خفة وعرامة فجمعوا من رأس مال صغير كنوزاً كبيرة في برهة وجيزة ومنهم من لم يستنكفوا من مال الفلاح فاكلوا لحمه وعرقوا عظامه حتى تم لهم والناس في غفلة والحكومة في اغفاءة ان من اغنياء اصبح بالة عن رعاياه ان جمعوا ما جمعوا سحتاً محضاً وحراماً لا يجوزه عقل من عقول البشر ولا شريعة من الشرائع السماوية والارضية .

هكذا الا كثر مما نشاهده من الثروات وعلى هذه الاسس قامت ابنية الامجاد والتقتير رائد اصحابها والامساك شرعتهم الى الجمع . ومن اثاث قرش فصرفت نفسه واحسن استخدام احمر لاعداء يأتي عليه يوم يحوز الغنى وكيف لا نلمس بعض الاغنياء الى كزازة الايدي ونحن نراهم لا يبخسون حتى بتعليم اولادهم مع ان تعليمهم باتفاق آراء العقلاء يعادل اطعامهم غذاء اجسامهم وتغذية الارواح مفضلة عند الكثيرين على تغذية الاشباح

لو تعلم اولاد الاغنياء التعليم العصري المطلوب لربوا على الاخلاق الفاضلة اخلاق العمل والاحتساب ما حيف على ثروات آبائهم من التبدد ورثوا النسب كما يتوارث النسب كابراً عن كابر فتتسلسل الرفاهة في بيوتهم الجيل بعد الجيل والعصر بعد العصر فلا يخفون عيلة ولا يشكون سقوطاً معيلة . واصدق مثال يصح الاستشهاد به كل حين ما يراه كل انسان من الفروق في حالة المسيحيين والمسلمين ابناء وطن واحد لا يختلفون

في شرائعهم ولاسيما عاداتهم وقد فاقوا المسلمين بمبادي تعلموها من المعمات والعلوم وطاب عيش الفقير منهم اكثر من عيش الغني في المسلمين وذلك بفضل ما تعلموه من حسن التربية والحساب للمستقبل وعدم الاتكال على الحكومة واعمالها بل على الكفاءة واستخراج الثروة من المذاهب الطبيعية في المعاش ٠

وعقد ابن خلدون فصلاً في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء فقال « ان باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي اسباب كونه وبقائه وانه من بعده مباشر لابيه قد سمع منه ذلك واخذه عنه الا انه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاين له ثم اذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة واضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم ان ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وانما هو امر وجب لهم منذ اول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهم انه النسب فقط فيربأ بنفسه عن اهل عصبيته ويرى الفضل له عليهم وثوقاً بما ربي فيه من استتباعهم وجهلاً بما اوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من اهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب للاذعان لعصبيتهم بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الاول وينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت القبائل والامراء واهل العصبية اجمع ثم في بيوت اهل الامصار اذا انحطت بيوت نشأت بيوت اخرى من ذلك النسب ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز

« واشتراط الاربعة في الاحساب انما هو في الغالب والا فقد يدثر البيت من دون الاربعة ويتلاشى وينهدم وقد يتصل امرها الى الخامس والسادس الا انه في انحطاط وذهاب واعتبار الاربعة من قبل الاجيال الاربعة بانه مباشر له ومقلد وهادم وهو اقل ما يمكن وقد اعتبرت الاربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم انما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب ابن اسحق ابن ابراهيم اشارة الى انه بلغ الغاية من المجد وفي التوراة ما معناه ان الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع وهذا يدل على ان الاربعة الاعقاب غاية في الانساب والحسب اه

وبعد فان من سنن الكون انه لا يغلب المرء خيراً . لا الاحد قيلاً وان من رأيتم الناشئين في المعاهد الاخرى يكتسبون ثروة لا تدانيها ثروة الذين هم في الزراعة من ابائهم ومعلميهم يزوّدون حتى يعتاد ان الناشئ ان يجني بعيش البساطة بالسـل الجديد فلا يخشى كثيراً عن خروجه ولا يبعد ان يجيء يوم يتولى الانكليز الذين لا يعرفون الآن الا القليل ان نزعتهم لزمة الامور و يحكمون هم اهل البلاد خصوصاً اذا داموا في ابائهم على الاعتماد على انفسهم بطريق التعليم والتربية التي بمقتضاهم يعمر أبناؤهم على الاستقلال لا على الاتكال في الاعمال . ويومئذ يكونون اعضاء عاملين في المجتمع البشري لا يتكلون على آخرين ومأمورين . ويومئذ يعرفون قدر المال وطرق كسبه من الوجوه المشروعة المعتادة لا بالاحتيال والنصب وخبيث الطمع وسوء النية . ويومئذ كما يربي الانكليزي ولده فيعلمه حتى اذا بلغ الرشد يطلبه يرخاه في معترك الحياة طالباً منه كل . ولا عائلة الا كما يربي الفرنسوي ولده فيعلمه ثم اذا اشب لا ينفك عنه يزوجه ويعطيه ويرتب حرم بيته حتى يخلف قدراً أكثر إليه

التعليم الوطني

من اهم المسائل الاجتماعية في العالم مسألة التعليم فهو الذي تحرص عليه الامم حرصها على جنسيتها . والتعليم الوطني هو ارقى انواع التعليم به تحفظ الجنسيات واللغات ويبقى في العادات والقوميات ولذلك نجد الدول في هذا الشأن على اشد ما يكون بين الامم الغالبة والامم المغلوبة فالبولونيون لا يتعلمون من الالمان والنمسويين والروسيين الا لان كلا من المانيا والنمسا وروسيا تحاول ان تصبغ البولونيين بصبغتها . والالزاسيون لا يتعلمون من فرنسا الا لانها التي تقضاه في جنسيتهم ولغتهم ودينهم تعليم المبادئ الفرنسية واللغة الفرنسية . والكوريون لا يقتصرون على اليابانيين الا لانهم لا يحبون ان يصبغوا اهل كوريا بصبغتهم ويطمسوهم في ماضيهم . واهل الالزاس واللورين لا يكونون من الالمان الا لانهم يرمون الى تربيتهم على الاسلوب الالماني وتقريب اللسان الالماني لينشأوا مع الزمن المانيين وقوميتهم كما سعى اهل [illegible] الى روسيا . والبولونيون لا ينفكون عن هو لانية الالمانيا في نشأتهم على مناحيها .